علي و القرآن

<"xml encoding="UTF-8?>

بسم الله الرحمن الرحيم

علاقة الإمام علي (عليه السلام) بالقرآن الكريم علاقة جذرية و عميقة ، كيف لا ؟ و قد اختلط لحمه و دمه منذ نعومة أظفاره بالقرآن ، فقد أثر فيه القرآن الكريم بجميع مفاهيمه و عقائده و فقهه و أخلاقه و بلاغته و فصاحته ، فإن " من قرأ القرآن و هو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه و دمه ، و جعله مع السفرة الكرام البررة ، و كان القرآن حجيزاً عنه يوم القيامة " 1 .

محتويات [إخفاء]

علي و نهج البلاغة
بلاغة الإمام علي
التشكيك في نهج البلاغة

هذا في الشاب المؤمن العادي ، فكيف بمن تربى في حضن النبوة و الرسالة ، و تغذى بالوحي الإلهي ، و صار ابن عمه صلى الله عليه و آله يزقه علوم القرآن زقاً ، هذا في صغر سنه و عندما كان معه في منزله ، و بعد أن كبر و استقل في السكن عنه ها هو يتحدث عن حالته ، قال عليه السلام : (و كنت أدخل على رسول الله (صلى الله عليه و آله) في كل يوم دخلة ، و كل ليلة دخلة ، فيخيلني فيها أدور معه حيثما دار ، و قد علم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و آله) أنه لم يصنع ذلك بأحدٍ من الناس غيري ... و كنت إذا سألته أجابني ، و إذا سكت و فنيت مسائلي ابتدأني ، فما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه و آله) آية من القرآن إلا أقرأنيها و أملاها عليَّ ، فكتبتها بخطي ، و علمني تأويلها و تفسيرها ، و ناسخها و منسوخها و محكمها و متشابهها و خاصها و عامها ، و دعا الله أن يؤتيني فهمها و حفظها ....) 2 .

و بعد هذا و ذاك يصدّر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله حكمه في هذه العلاقة بين صهره و ابن عمه والد سبطيه و بين القرآن الكريم بقوله : (علي مع القرآن و القرآن معه ، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض) 3 ، و في لفظ الحاكم : (علي مع القرآن و القرآن مع علي ، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض) .

هذه العلاقة التي ما فتئت و لا زالت تشتد يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة ، و صار أمير المؤمنين عليه السلام يدافع عن قدسية القرآن و عظمته ، و تحقيق مفاهيمه و تطبيق حدوده طيلة حياته ـ كما أخبر بذلك الصادق الأمين صلى الله عليه و آله بقوله : (أنا أُقاتل على تنزيل القرآن ، و علي يقاتل على تأويله) 4 ـ حتى آخر نفس من حياته ، و استشهد صلوات الله عليه في سبيل تحقيق أهداف القرآن و ترسيخ مبادئه .
و قد أبان القرآن الكريم مقام علي عليه السلام و فضله و عظم شأنه في عشرات الآيات كـ آية المباهلة ، و آية المودة ، و آية التطهير ، و سورة (هل أتى) و غيرها .

علي و نهج البلاغة

فلا عجب حينئذ بعد هذا التلاقح و التماسك و الالتئام بين علي عليه السلام و القرآن ، أن ينعكس القرآن بمفاهيمه و مبادئه على أفكار علي عليه السلام و مفاهيمه و عقائده ، و أصبح أمير المؤمنين علي عليه السلام ترجمان القرآن للأُمة الإسلامية و صدى القرآن ، بل هو القرآن الناطق المتحرك ، و هذا ما برز في سلوكه و أفعاله و أقواله ، فإذا نظرت إلى أقواله و خطبه التي تجسدت في (نهج البلاغة) و الخطب الأخرى ترى مفاهيم القرآن و وعظه و حكمه و بلاغته و فصاحته قد صيغت بلسان الفصاحة و البلاغة و الزهد و الشجاعة بأسلوب أمير المؤمنين عليه السلام ، فنهج البلاغة هو في الحقيقة تفسير و توضيح للقرآن الكريم .

بلاغة الإمام علي

نهج البلاغة فريد في أسلوبه .. في فصاحته .. و بلاغته في حكمه في مواعظه و إرشاداته .. في تأثيره على قارئه و حافظه و سامعه ، و ليس من المبالغة إذا قيل فيه " إنه يعادل فوائده الدينية و الأدبية كتب جميع العلماء و الأدباء ، كيف لا و هو تالي كتاب الله تعالى " 5 .
و قال ابن أبي الحديد :
" و أما الفصاحة فهو عليه السلام إمام الفصاحة ، و سيد البلغاء ، و في كلامه قيل : دون كلام الخالق ، و فوق كلام المخلوقين . و منه تعلّم الناس الخطابة و الكتابة ، قال عبد الحميد بن يحيى : حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت . و قال ابن نُباته : حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة و كثرة ، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب " 6 .
و قال الرضي رحمه الله :
في سبب تأليفه لنهج البلاغة بعد أن جمع فصلاً من كلامه عليه السلام في كتابه خصائص الأئمة قال : " فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره ، معجبين ببدائعه ، و متعجبين من نواصعه ، و سألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ، و متشعبات غصونه ، من خطب و كتب ، و مواعظ و أدب ، علماً أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة ، و غرائب الفصاحة ، و جواهر العربية ، و ثواقب الكَلِم الدينية و الدُّنيويَّة ، ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ، و لا مجموع

الأطراف في كتاب ، إذ كان أمير المؤمنين مَشْرَع الفصاحة و مَورِدهَا ، و منشأ البلاغة ومَوْلِدها ، و منه عليه السلام ظهر مكنونها ، و عنه أخِذَت قوانينها ، و على أمثلته حذا كل قائل خطيب ، و بكلامه استعان كل واعظ بليغ ، و مع ذلك فقد سَبَق و قصّروا ، و تقدم و تأخروا ، لأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي ، و فيه عَبْقَةٌ من الكلام النبوي " 7 .

و هكذا يتابع الشريف الرضي رحمه الله ـ الكلام في الكشف عن فصاحة و بلاغة الإمام علي عليه السلام و مدى تعجب أهل الأدب و العلم من كلامه عليه السلام و أنه يوجد بينه و بين من تقدم من السلف فارق كبير فيقوله ـ رحمه الله ـ : " و أنه انفرد ببلوغ غايتهما عن جميع السلف الأولين ، الذين إنما يؤثر عنهم منها القليل النادر و الشاذ الشارد ، فأمّا كلامه فهو البحر الذي لا يُساجَل 8 ، و الجم الذي لا يُحافَل 9 " 10 .

التشكيك في نهج البلاغة

و بعد أن أحطت حول خطب أمير المؤمنين عليه السلام و كلامه خُبراً ، تعلم أنه لا يوجد شخص يحترم نفسه و علمه إن كان لديه علم ، أن يدعي أن (نهج البلاغة) و الخطب الموجودة فيه ، و الحكم المودعة لديه منحولة على أمير المؤمنين عليه السلام مثل ما يقوله الذهبي في ترجمته للسيد المرتضى و هو أخو الشريف الرضي قال : " علي بن الحسين العلوي الحسيني الشريف المرتضى المتكلم الرافضي المعتزل ، صاحب التصانيف ـ إلى أن قال ـ و هو المتهم بوضع كتاب (نهج البلاغة) ، و له مشاركة قوية في العلوم ، و من طالع كتابه (نهج البلاغة) ، جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، ففيه السب الصراح و الحط على السيدين : أبي بكر و عمر رضي الله عنهما ، و فيه من التناقض و الأشياء الركيكة و العبارات التي من له معرفة بـ نَفَس القرشيين الصحابة و بـ نَفَس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل " 11 .

إذا كان الذهبي مع علمه و إحاطته و خبرته في التاريخ و الجرح و التعديل ، لم يتمكن أن يميز و يعين من هو الذي جمع كتاب (نهج البلاغة) هل هو الشريف المرتضى المتوفى 436 هـ أو أخوه الشريف الرضي : محمد بن الحسين بن موسى ، أبو الحسن الرضي نقيب العلويين بغداد أخو المرتضى و المتوفى 406هـ و قد ترجمه هو في الميزان تحت رقم (7424) و قال فيه : " شاعر بغداد ، رافضي جلد " .

الجواب :

1 ـ أقول إذا كان الذهبي لم يميز من هو جامع كتاب (نهج البلاغة) هل الرضي أو المرتضى ؟ كيف تسنى له أن يحكم على السيد المرتضى أنه هو المتهم بوضع (نهج البلاغة) ؟

2 ـ إن كتب السيد المرتضى التي ألفها في الفقه كالانتصار ، و الأصول كالذريعة ، و الأدب كالأمالي و غيرها ، كلها موجودة و معلومة ، و لو قارن الذهبي بينها و بين (نهج البلاغة) في الإنشاء و الأسلوب لرأى بينها و بينه البون الشاسع بعد ما بين السماء و الأرض ، مع جلالة و عظمة السيد المرتضى ، و لكن أين هو و أين (نهج البلاغة) ؟ .

3 ـ إن الشريف الرضي و الذي هو متخصص في الأدب " و كان رحمه الله عالماً أدبياً ، و شاعراً مفلقاً ، فصيح النظم ، ضخم الألفاظ ، قادراً على القريض ، متصرفاً في فنونه ، إن قصد الرقة في النسيب أتى بالعجب العُجاب ، و إن أراد الفخامة و جزالة الألفاظ في المدح و غيره أتى بما لا يُشق فيه غباره " و مع هذا كله لو قارن الذهبي أو غيره بين مؤلفات الشريف الرضي كديوانه ، و حقائق التأويل ، و المجازات النبوية و غيرها و بين نهج البلاغة لرأى

الفارق الكبير بينهما و حتى نثره الذي يعلق به على بعض الخطب في (نهج البلاغة) ، يجد الخبير اللبيب كل الاختلافات في الأسلوب و القوة بينه و بين (نهج البلاغة) .

4 ـ ثم ما هو الداعي لأن يقوم السيد المرتضى مع عدالته و ورعه أن يضع مثل هذا المجهود الكبير و ينسبه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، و هل الإمام بحاجة على أن تكمل فضائله بالكذب و الوضع .

5 ـ إن كثيراً من خطب نهج البلاغة موجودة في مصادر قبل أن يولد السيد المرتضى بل قبل أن يولد والده .

6 ـ إن الذي ألف و جمع نهج البلاغة هو الشريف الرضي عام 400 هـ ، و انتشرت نسخه في العالم قبل وفاته بست سنوات ، و لكن الذهبي عذره عنده حيث لم يطلع و لا على نسخة واحدة من نهج البلاغة حتى يتمكن أن يميز من هو جامعه هل الشريف الرضي أم الشريف المرتضى .

و حينئذ إذا حكم على (نهج البلاغة) من أنه منحول على أمير المؤمنين عليه السلام و مكذوب عليه و فيه الأشياء الركيكة و التناقضات فلا غرابة و لا عجب فإذا كان لا يعرف جامع الكتاب ، فمن باب الأولى أن لا يعرف محتواه ، و لا مستواه .

و لعل الذهبي قلد ابن خلكان في (وفيات الأعيان) حينما ترجم الشريف المرتضى ، و ذكر أنه الذي جمعه ـ أي جمع خطب نهج البلاغة ـ و نسبه إليه و هو الذي وضعه 12 .

* * * * * *

و كأن هذه الشنشنة قديمة و قد تعرض لها ابن أبي الحديد وردَّها بأحسن بيان قال : " لأن كثيراً من أرباب الهوى يقولون : إن كثيراً من (نهج البلاغة) كلام محدَث ، صنعه قوم من فصحاء الشيعة ، و ربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن و غيره ، و هؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم ، فضلوا عن النهج الواضح و ركبوا بُنيّات الطريق ، ضلالاً و قلة معرفة بأساليب الكلام ، و أنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول :

لا يخلو إما أن يكون كل (نهج البلاغة) مصنوعاً منحولاً ، أو بعضه .

و الأول باطل بالضرورة لأنا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، و قد نقل المحدّثون كلهم أو جلّهم ، و المؤرخون كثيراً منه ، و ليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك .

و الثاني : يدل على ما قلناه ؛ لأن من قد أَنِسَ بالكلام و الخطابة ، و شَدَاء طرفاً من علم البيان و صار له ذوق في هذا الباب لابد أن يفرق بين الكلام الركيك و الفصيح ، و بين الفصيح و الأفصح و بين الأصيل و المولّد ، و إذا وقف على كرّاس واحد يتضمن كلاماً لجماعة من الخطباء ، أو لاثنين منهم فقط ؛ فلابد أن يفرق بين الكلامين و يميز بين الطريقين ـ إلى أن قال ـ : و أنت إذا تأملت (نهج البلاغة) وجدته كله ماءاً واحداً ، و نفساً واحداً ، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية ، و كالقرآن العزيز ، أوله كأوسطه ، و أوسطه كآخره ، و كل سورة منه ، و كل آية مماثلة في المأخذ و المذهب و الفن و الطريق و النظم لباقي الآيات والسور ؛ و لو كان بعض (نهج البلاغة) منحولاً و بعضه صحيحاً لم يكن كذلك ؛ فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام " 13 . إلى آخر كلامه و هو جيد .

و كلام أهل البيت عموماً و الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خصوصاً له لحن خاص لا يتذوقه إلا من أنس بكلامهم قال عليه السلام : (و إنّا لأمراء الكلام ، و فينا تشعبت عروقه و علينا تهدلت غصونه) 14 .

7 ـ يضاف إلى ما تقدم أن مصادر كتاب (نهج البلاغة) كلها أو أكثرها موجودة و منتشرة في كتب الحديث و الفقه

، و قد تصدى جماعة من العلماء المحققين لتخريج خطب (نهج البلاغة) و حكمه و مصادرها الأولية ، و أوسعها ما كتبه المرحوم السيد عبد الزهراء (قده) الخطيب بعنوان (مصادر نهج البلاغة) خرج في أربع مجلدات و طبع وانتشر .

8 ـ و أما ما ذكره الذهبي من السب في نهج البلاغة فغير صحيح بل الموجود فيه التنزه عن السب و الترفع عنه ، و أن السب لا يحل مشكلة ، قال عليه السلام : (إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين ، و لكنكم لو وصفتم أعمالهم و ذكرتم حالهم كان أصوب في القول و أبلغ في العذر ، و قلتم مكان سبكم إيّاهم : اللهم احقن دماءنا و دماءهم ، و أصلح ذات بيننا و بينهم ، و اهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله و يرعوي عن الغي و العدوان من لهج به) 15 .

و إن كان عليه السلام لعن من يستحق اللعن كما لعن الله و رسوله صلى الله عليه و آله من يستحق اللعن .

* * * * * *

إن الخطب و الكتب و الحكم التي في نهج البلاغة اعتنت بالقرآن الكريم و حثت عليه قراءة و حفظاً و عبرة و تطبيقاً ، بل الهدف الأساسي في (نهج البلاغة) هو القرآن الكريم الدستور الإلهي أن تطبق حدوده و تُنشر أحكامه ، و تلتزم الأمة بمبادئه .

و الحمد لله رب العالمين

_____

1. الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام . انظر : وسائل الشيعة . ج6 ص177 . كتاب الصلاة باب6 من أبواب قراءة القرآن . حديث 7670 .
2. الخصال لابن بابويه القمي . تحقيق : علي أكبر الغفاري . ص257 .
3. أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (رقم الحديث : 4877) ، و أخرجه في المعجم الصغير ج1 ص255 (رقم الحديث : 694) ، و أخرجه الحاكم في المستدرك ج3 ص124 ط قديم و ج 3 ص134 ط جديد (رقم الحديث : 4628) بسند صحيح ، و كذلك الذهبي في تلخيص المستدرك و صححه . انظر بقية مصادر الحديث في هامش المراجعات تحت رقم (611) .
4. الإصابة . ج1 ص191 رقم الترجمة 59 . و كنز العمال رقم الحديث 32968 .
5. قاموس الرجال ج9 ص229 رقم الترجمة 6644 .
6. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج1 ص24 المقدمة .
7. المصدر السابق ج1 ص 44 ـ 45 .
8. لا يساجل : لا يغالب في الامتلاء و كثرة الماء .
9. لا يحافل : لا يغالب في الكثرة ، من قولهم : ضرع حافل ، ممتلئ كثير اللبن . و المراد أن كلامه لا يقابل بكلام غيره لكثرة فضائله .
10. المصدر السابق ج1 ص46 .
11. ميزان الاعتدال للذهبي ج5 ص152 رقم الترجمة 5833 .
12. انظر وفيات الأعيان . ج3 ص313 . تحقيق : الدكتور إحسان عباس .
13. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج10 ص127 ـ 129 .

14. نهج البلاغة ص307 شرح محمد عبده . و انظر حول كلام أهل البيت و لحنهم الخاص : جواهر الكلام ج21 ص397 . ج42 ص104 .

15. نهج البلاغة . ص218 ط دار الكتب . شرح محمد عبده .